المثقفون العرب ووسائل الإعلام

في ظل التحديات الراهنة[1]

د. صـالح خليـل أبو أصـبع

في السبعينات من القرن برز حلم كبير عند شعوب العالم الثالث وكانت مظاهره تتمثل في حلم له بعدين رئيسين:

نظام اقتصادي عالمي جديد ونظام إعلامي دولي جديد.

وقد حمل هذان البعدان معهما أملا في تحقيق العدل والإنصـاف والتوازن، ولم يخطر في بال أولئك الاقتصاديين والسياسيين والإعلاميين صورة لمستقبل العالم في تسعينات هذا القرن، ولا كان في بالهم ولا في بال أي متنبئ أن يقول ما هي صـورة النظام السـياسي العالمي الجديد التي يمكن أن تكون.

ما طالبت به أغلبية شـعوب العالم في السـبعينات وفي الثمانينات من ضرورة إيجاد نظام عالمي جديد في المجالات السـياسـية والاقتصـادية والإعلامية كافة، وجد آنذاك اسـتجابات قوية في المحافل الدولية وعلى الخصوص في اليونسكو.

وكان إعلان اليونسـكو 1977 قد طالب بتأسـيس توازن جديد وتبادل أعظم في تدفق المعلومات، ورأى هذا الإعلان أنه من الضرـوري تصـحيح تدفق المعلومات كميا ونوعيا من وإلى الدول النامية. وصدر بعد ذلك في الثمانينات الدراسة المعروفة التي أعدها فريق من اليونسكو على رأسـهم ماكبرايد وكان عنوانها "أصـوات متعددة وعالم واحد". وأكدت هذه الدراسـة على حرية الاتصال وتدفقه وتوازنه.

وجسـدت هذه الدراسـة حلم وأمل الإنسـانية في إعلام حر ومتوازن وكانت كل تلك الطموحات مشروعة في ظل نظام قائم على توازن القوى الدولية، وحالما سـقط الاتحاد السـوفيتي.

---

[1] **المثقفون العرب ووسائل الإعلام في ظل التحديات الراهنة، المجلس القومي للثقافة العربية- الرباط المغرب 1993/1/18.**

وا ستفردت أمريكا بقيادة العالم كله، تغيرت معه صورة الأولويات والطموحات التي كانت شعوب العالم تطالب بها.

لقد كان الانتصـــار الأمريكي قد تحقق عمليا قبل الانهيار الاتحاد الســـوفيتي، ولا شـــك أن الآلة الإعلامية الأمريكية وسيطرتها على تدفق المعلومات وصناعتها وعلى الاتصال الدولي بشكل عام كانت قد أنجزت أهداف السياسة الأمريكية قبل أن يتحقق الانهيار الكامل في المعسكر الاشتراكي.

والآن يحق لنا أن نتســـاءل: أن يقف المثقفون العرب من قضـــاياهم في ظل التحديات الراهنة؟

في هذا الفصـــل ســـوف أركز الحديث على جانب مهم وهو "دور المثقف العربي في مجال الإعلامي في ظل التحديات الراهنة".

وقبل الخوض في طبيعة هذه العلاقات وتأثيرها في المثقف، أود أن أشـير بإلماحة سريعة إلى علاقة المثقف ببيئته من خلال التعرف على علاقة المثقفين بالســـلطة وعلاقة المثقفين بالجمهور وعلاقات المثقفين بالقضايا الحية الراهنة وعلاقة المثقفين بالقضايا الطارئة.

1- علاقة المثقف العربي بالسلطة: بدأت في السنوات الأخيرة في الوطن العربي تمتد لحضور بين المثقفين والسـلطة، وإذا كان البعض قد رفع شـعار تجسـير الفجوة بين السـلطة والمثقفين إلا أن الحقيقة أن هذا التجســـير لم يكن حركة متوازنة من الطرفين لتجســـير الفجوة. وإنما كان اقترانا من المثقفين من السلطة أحيانا مهادنة، وأحيانا أخرى، استسلاما وكان لذلك أسبابه التي يرتبط بأسلوب السلطة في الإغراء أو القمع أو المحاربة في لقمة العيش.

وبات المثقف العربي أســير همومه الإقليمية الضــيقة، ولا يخرج في معالجة القضــايا التي تواجه أمته العربية إلا بمقدار ما تسمح به "السلطة".

2- علاقة المثقفين بالجمهور: كلما اقترب المثقف من الســـلطة كلما ابتعد عن هموم الجمهور، ولكما أصبح همّه ذاتيا، والمثقف العربي مبتلى بالذاتية المفرطة والتي تفضل الخاص على العام.

3- المثقفون والقضايا الحيّة الأساسية: منذ منتصف هذا القرن والمثقفون العرب يعيشون في دوامة قضـايا حيّة تمس الوطن والمواطن، تتمثل هذه القضـايا الملحة فيما يلي: قضـية فلسـطين وهمّها القومي، الوحدة العربية، حقوق الإنسان، والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، التنمية. الفقر، والأمة.

وقد تذبذت الاهتمامات بهذه القضـــايا وتراجعت الأولويات ودرجة التزام المثقفين بها أو في معالجتها.

4- علاقة المثقفين العرب بالأحداث الطارئة: تواجه الأمة العربية العديد من القضـــايا الطائرة التي تحتاج إلى مواقف واستجابات فورية سريعة تكون قادرة على

التعبير عن هموم الجماهير وقـادرة على قيـادتهـا، ولكن المتتبع للأمور يرى كيف أن اســتجابات المثقفين العرب باتت بطيئة – وأحيانا مفقودة- تجاه القضـــايا القومية التي تواجههم، ولعلنا نتذكر سـلسـلة من الأحداث الطارئة ونتسـاءل من سرعة ومسـتوى اسـتجابة المثقفين العرب لهذه التحديات مثل الاجتياح الصـــهيوني عام 1982 للبنان، الاعتداء الأمريكي على ليبيا عام 1986، حرب الخليج الأخيرة- وحصـار العراق المسـتمر، قضـية لوكربي وحصـار ليبيا 1991، ضـم جزيرة أبي موسى رسميا إلى إيران 1992، المبعدون الفلسطينيون إلى مرج الزهور في جنوب لبنان 1992، وغيرها الكثير مما يعزز استغراق المثقف بهمومه الذاتية وفي أحسن الأحوال استغراقه في همومه القطرية.

المثقفون العرب ووسائل الإعلام

المثقفون العرب ووسائل الإعلام

إن هذه العلاقات الأربع التي تحدثنا عنها تجد انعكاساتها الإيجابية أو السلبية في وسائل الإعلام، ويتوقع المراقبون أو الدارسـون أن يجدوا مواقف المثقفين العرب موثقة عبر وسـائل الإعلام، وهذا يحتاج منا أن نتفهم دور وســـائل الإعلام في تزييف الحقائق وتزييف الوعي لدى المواطن والمثقف. ويحتاج منا إلى تفهم لأســـلوب المثقفين في التعامل مع وســـائل الإعلام، ثم نصـــل إلى مسؤوليات المثقف الإعلامية في ظل التحديات الراهنة.

أ) دور وسائل الإعلام في تزييف الحقائق وتزييف الوعي

لوســائل الإعلام مهمات أســاســية تتمثل في نقل ونشر الأفكار والمعلومات. ولأن معظم وسائل الإعلام في الوطن العربي تسيطر عليها الأنظمة أو تسيطر عليها فئات ذات مصالح مرتبطة بهذه الأنظمة، فإن من مصالحها الحد من نشر المعلومات وتداولها ونشر الأفكار المختلفة والحوار حولها. وتتستر في ذلك تحت شعار حماية الثقافة (الوطنية- القطرية) وضرورة الالتزام بالخصوصية الثقافية وحماية التعليم والتراث وغير ذلك من الشـــعارات وهذا الأســـلوب يؤدي إلى أن يلعب الرقيب الخارجي والرقيب الذاتي – الكاتب نفسـه- دورا أسـاسـيا في وضـع الخطوط الحمر التي لا يمكن

تجاوزها عند الحديث عن القضايا الحية الأساسية التي تحدثنا عنها. ولذا فإن أي مراقب لوسائل الإعلام الجماهيري يمكن أن يلحظ الدور الترفيهي المتميز لهذه الوسائل، ويلاحظ كذلك حجم ما يقدم من برامج أجنبية في التلفاز تؤدي بالمواطن إلى السلبية والانعزال، وإلى خلق أنماط من السلوك غريبة في المجتمعات العربية، وأن تقديم نماذج غربية تمثل التفوق الأسطوري تخلق ثقافة الاغتراب والعزلة وتسهم إسهاما كبيرا في صنع النمط الاستهلاكي كسلوك مهم عند الناس، ولا شك أن هناك مجموعة من الأساليب التي تزيف بها وسائل الإعلام الحقيقة، وكما استوردنا معدات وسائل الاتصال الجماهري فإننا استوردنا كذلك معها أنماط تزيفية للحقيقة تلك التي تحدث عنها الباحث الأمريكي دانييل بورستين حينما أشار إلى ما سماه بالأحداث المختلفة التي تعرضها وسائل الإعلام وتأخذ صيغة مقبولة بالنسبة للجمهور تمتلك المصداقية، وهي تتمثل بالصيغ التالية والتي باتت مستخدمة في وسائل إعلامنا:

1- المقابلات الصحفية والمؤتمرات: التي يعقدها المسؤولون والتي باتت طريقة جديدة لفبركة الأخبار.

2- البرامج السياسية المنظمة: التي تستضيف السياسيين وهي أشبه بالمؤتمرات الصحفية.

3- البيانات الإخبارية: التي تصدرها الجهات المختلفة، تحت اسم الناطق الصحفي أو الناطق الإعلامي، سواء أكانت تتعلق بأمور سياسية أو ثقافية أو اقتصادية، أو نقابية وهذه البيانات هي أخبار مطبوخة مسبقا وجاهزة عند الحاجة.

4- الإعلانات: وما تحمله في طياتها من معلومات وعناصر جذب متنوعة تعتمد على القوة العاطفية والقوة المنطقية الإقطاعية وفي الغالب ما تحمل الإعلانات كلمات غامضة مراوغة في معانيها تعتمد على الخداع والتمويه وتحمل أحيانا بعض الحقيقة لكنها لا تعبر عن حقيقة ما تعلن.

5- فن صنع النجوم في عالم الثقافة والأدب والفن: إن ما نلاحظه من كتابات في مختلف الصحف العربية وفي برامج التلفزيون تعمد أحيانا إلى صنع النجوم أو إضفاء لمعان على بعضها وذلك يرتبط بمجموعة من المصالح والمجاملات التي تفتقر إلى الموضوعية.

وهذا يشمل على سبيل المثال المتابعات النقدية للإصدارات الجديدة، أو المعارف الفنية، أو الأعمال الدرامية المسرحية أو السينمائية أو التلفزيونية وهذا ما يؤدي إلى تزييف وعي القارئ العادي إذ إنه لا يدقق كثيرا في المعلومات التي يتلقاها وتأخذ الكلمة مصداقيتها في أحيان كثيرة لمجرد نشرها في صحيفة أو مجلة محترمة.

6- خلق الصـــور النمطية: تلعب وســـائل الإعلام دورا مهما في خلق الصـــور النمطية التي تنطبع في الأذهان عن الأشـــخاص أو الشـــعوب بحيث تصـــبح هذه الصـــور ثابتة في الأذهان ومن الصعب تغييرها.

ولعل المتتبع للسـينما والتلفزيون العربي. يدرك إلى أي مدى أسـاءت هاتان الوسـيلتان إلى شخصية المعلم في المجتمع العربي.

ب) المثقفون والتعامل مع وسائل الإعلام

يلعب المثقفون دورا مزدوجا مع و سائل الإعلام، فهم مستهلكون لما تقدمه و سائل الإعلام وهم أيضا منتجون لمضامينها.

وفي هذا الإطار لا بد من التفريق بين ثلاثة أنواع من الثقافات:

* النوع الأول: ما يعرف باسـم الثقافة الراقية أو ثقافة النخبة وهي تتمثل بشـكل أسـاسي بمنتجات الكتب الدراسية والأدبية والفنية والأعمال الفنية الراقية التي أنتجت للنخبة المتعلقة.

* النوع الثاني: الثقافة الشـعبية وهي التي يصـنعها الشـعب وتعتبر من موروثاته الثقافية وتتسم بالتلقائية وتنمو من القاعدة.

* النوع الثالث: الثقافة الجماهيرية وهي تستمد مضمونها من المزاوجة بين الثقافة الراقية والثقافة الشعبية، وهي التي تقدمها لنا وسائل الاتصال الجماهيري المقروءة والمسموعة والمرئية.

وحيث باتت الثقافة الجماهيرية تسـيطر على حياتنا، وباتت تفرض نفسـها وتأثيراتها على كل من الثقافتين الراقية والشـــعبية، فإن مســـؤوليات المثقف العربي نحو التحديات تتطلب تعاملا جادا مع وسائل الإعلام وذلك من خلال:

- تحديد التحديات التي يواجهها المثقف العربي على مســـتوى الوطن العربي، كي يتعامل معها، ويعبر عنها، ويعرف كيف يواجهها.

- ثم توضيح أسلوب تعامله إعلاميا بحيث يتوفر المناخ الملائم لذلك.

المثقفون العرب والتحديات

يواجه المثقفون العرب، بل تجابه الأمة العربية كلها، جملة من التحديات التي تؤثر في كيانها وتقدمها. وعلى الرغم من أن هذه التحديات كبيرة وعديدة إلا أننا نشـــير إليها بناء على أولوياتها وهذه التحديات تتمثل بما يلي:

1- التجزئة وتكريس الكيانات القطرية ككيانات بديلة للكيان القومي.
2- الاحتلالات للأراضي العربية، مما يجعل الوطن العربي في مواجهة غاصبي هذه الأجزاء مثل فلسطين والجولان وجنوب لبنان وغيرها.
3- التخلف وما يحمله من مظاهر الجهل والفقر والمرض.
4- التبعية الاقتصادية وعدم القدرة على استغلال الثروات استغلالا نافعا للأمة.
5- الافتقار إلى تحقيق الحريات الأســاســية للإنســان، ناهيك عن تحقيق الديمقراطية كفلسفة تحقق المشاركة الشعبية في السياسة والحكم.
6- الاستلاب الثقافي كمظهر من مظاهر الهيمنة الثقافية والإعلامية الغربية، التي أخذت تتضح أبعادها من خلال ما بات يُعرف باسم الاستعمار الإلكتروني الثقافي وما يحققه من تبعية ثقافية.
7- افتقار الدولة في إدارتها إلى اعتماد مبدأ المؤسسات وسيادة المجتمع بدلا من أن تكون دولة محسوبيات وتقوم على مبدأ أهل الثقة بدلا من أهل الكفاءة والخبرة.

المثقف العربي ودوره في المجال الإعلامي

أشرنا إلى أن المثقف العربي هو منتج ومستهلك لمضمون وسائل الإعلام، ومن هنا فإن دوره ينجم عن هذا الواقع، فهو يكتب لوسائل الإعلام، ويقرأ أو يسمع أو

يشـــاهد ما تقدمه وســـائل الإعلام. وكلا الدورين يحتاجان منه إلى التزام بثوابت الثقافة، وتحتاج منه أن يعبر عن التحديات سواء فيما يكتب أو يعبر أو يبدع.

ولكي يكون دوره في المجال الإعلامي فإنه لا بد أن ينتهج ما يلي:

1- التفتح والحوار: وذلك بأن يكون مســتعدا لتلقي الآراء المختلفة، ســواء اتفق معها أو اختلف، ومن ثم يكون قادرا وقابلا لأن يفتح الحوار حولها بصدر رحب.

2- النقد والنقد الذاتي: على المثقف أن يمتلك القدرة والاســتعداد لإبداء آرائه بصراحة، وانتقاد ما يراه ضروريا من أجل مجابهة التحديات التي تحدثنا عنها.

وعليه أيضا أن يمتلك الجرأة لممارسة النقد الذاتي حينما يدرك أن مواقفه أو أفكاره لم تكن صائبة.

3- الشـــجاعة الأدبية والتعبير عن الرأي: إن النقد والنقد الذاتي لا يمكن أن يتحققا إذا لم يمتلك المثقف الشجاعة الأدبية والقدرة على التعبير عن الرأي مع تحمل للمسؤولية.

4- الموضـوعية والأمانة العلمية: إن من أهم مسـتلزمات التعبير أن يلتزم المثقف بالصـدق والأمانة العلمية، والقدرة على عرض جوانب القضـــايا التي يطرحها بتجرد من المصـــالح الذاتية، وبعيدا عن التحيز والهوى، والالتزام بالحقيقة والموضوعية مهما كان ثمن ذلك الالتزام.

وها نحن ندخل القرن الحادي والعشرـين الذي تتشـكل فيه بوادر عالم جديد، فيه تقترب المسافات أكثر وتزداد هيمنة الاتصال وقدراته أكثر فأكثر، وتزداد فيه الهوة بين الشعوب في مجالات التكنولوجيا والرفاه والديمقراطية، وتوفير متطلبات الإنســان في المعرفة والعلوم والتعامل مع البيئة. وهذه تحديات تزداد يوما إثر يوم، ومعها تزداد مســؤوليات المثقف العربي نحو مجتمعه، وتصــبح مسؤولياته أعظم في التعامل مع وسائل الإعلام.